وسائل الاعلام والعولمة والهوية الوطنية

أ. رجب الطاهر الختروشي
قسم الإعلام، جامعة الزاوية

مقدمة

أن الانتشار الواسع لوسائل الإعلام والاتصال كفضاء مفتوح، صار ملاذا لممارسة شتى أشكال التمييز وإنتاج خطاب يتلاعب بالهوية ويجعلها محل نقاش ، وهو ما يستثمره الفاعل السياسي بالدرجة الأولى، وهو ما نلاحظه أيضا من خلال دراسة للمحتوى العربي على شبكة الإنترنت، سواء تعلق الأمر بصحافة المواطن أو التدوين القصير من داخل مواقع التواصل الاجتماعي، بحيث يلعب التشبيك والتشكيك دورا أساسيا في زعزعة قيم الهوية بمختلف أنماطها من خلال استخدام مصطلحات العنف، المادية منها والرمزية أو الخطابية اللفظية. لهذا وجب ترسيخ ثقافة الحوار والقبول بالرأي المخالف في ترسيخ الهوية، الأمر الذي سيصبح معه التسامح كمبدأ مجتمعي يساعد على تطوير المفاهيم والأطروحات الفكرية، وبالتالي نبذ العنف المؤدي إلى تفكيك الهوية الوطنية.

وتعد العولمة اليوم من قبل الكثير من الباحثين و المفكرين العرب بأنها الخطر الداهم الذي يهدد الهوية الثقافية والاجتماعية والهوية الدينية على وجه التحديد من خلال اذرعها الذي يعتبر الاعلام اساسها .

فالهوية الوطنية في كل أمّة هي الخصائص والسمات التي تتميز بها، وتترجم روح الانتماء لدى أبنائها، ولها أهميتها في رفع شأن الأمم وتقدمها وازدهارها، وبدونها تفقد الأمم كل معاني وجودها واستقرارها، بل يستوي وجودها من عدمه، وهناك عناصر للهوية الوطنيّة لا بد من توفرها، وقد يختلف بعضها من أمّة لأخرى.

وللهوية الوطنية مجموعة من العناصر تبدأ بالموقع الجغرافي، حيث إنّ من يشتركون فيها يضمّهم موقع جغرافي محدد. وكذلك عنصر التاريخ، وهو التاريخ المشترك الذي يربط من يشتركون في الهوية الوطنية الواحدة، وهو الأحداث التي مرت بآبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم بصفتهم الجماعيّة على هذه الأرض. وكذلك عنصر الاقتصاد، وهو المحرك للنشاط داخل المجتمع ويربطهم رباط اقتصاديّ واحد، ونظام مالي واحد، كنظام العملات الموحد،. العلم

الواحد، وهو الرمز المعنويّ الذي يجمع كل أبناء الشعب الواحد والقضيّة الواحدة، وهو شيء مادي ملموس، له رسم وشكل محدد بألوان محددة، ولكنه يرمز إلى قيمة معنويّة، وهي الهوية الوطنية والانتماء للوطن. وكذلك الحقوق المشتركة، حيث يتمتع أبناء الهوية الوطنية الواحدة بالحقوق ذاتها، كحق التعليم، وحق التعبير عن الرأي، وحق الحياة بكرامة والعزة على أرضهم، وحق الملكية، وحق البناء فوق أرضهم، وحق العمل، وغير ذلك من الحقوق التي تجسد معاني الهويّة الوطنية. وكذلك الواجبات، وهي الواجبات الفرديّة، والجماعية، التي يتعين على المجموع الوطني القيام بها، إمّا بصفة الفردية، كالأفراد كل في مجال عمله وتخصصه ونشاطه، وإمّا بصفتهم الجماعية، وذلك مثل ما يتعين على المؤسسات القيام به نحو مواطنيها، وفق آليات محددة، كمؤسسات التربية والتعليم، ومؤسسات الصحة والبيئة، والاقتصاد، والبنى التحتيّة، والدفاع، وسلطة المواصلات، والسلطة الحاكمة بكل مؤسساتها التشريعيّة والتنفيذية، وغير ذلك من مسميات وطنية تحمل روح العمل الجماعي لخدمة الوطن والمواطن، فهذه كلها بعملها والتزامها به على خير وجه تعبر عن الهوية الوطنيّة.

الاطار المنهجي للدراسة:

اولا : اشكالية الدراسة.

تلعب وسائل الإعلام دوراً رئيسيّاً في نقل الأفكار والقيّم ومنحها الوزن والقوّة، حيث تستخدم الصوّر، والرسوم والكلمات، والشخصيّات، بالإضافة إلى الألوان والتأثيرات المصاحبة من موسيقى واضاءة وخلفيات ونماذج اعلانيّة، دورا فعالا من أجل شد وربط المتلقي بالنموذج المعد والمدروس مسبقا كما تعتبر وسائل الاعلام موقعاً للتغيير والذي من شأنه العمل على نقل الأيديولوجيّات والافكار والمعايير، أي يعكس ما يحدث تماماً في المجتمع، أما علاقته بالهويّة فإن جميع أعضاء وسائل الإعلام من صحافيين واذاعيين وكتّاب السيناريو والمخرجين ووكلاء الشركات وحتى مصمّمي الأزياء والملابس يتّخذون جميع الخيارات التي تساعد الجمهور على فهم الهويّة الشخصيّة وما يهتمون به، بحيث يتحكّمون من وراء الكواليس بالمكياج والشعر والطريقة التي تتحدّث فيها الشخصيّات، وكيف يتحرّكون لإيصال الهدف من قصّتهم باختصار.

وعندما يتم إنشاء الهويّات في وسائل الإعلام فإن كل فرد يعتمد لفهم التمثيلات الإعلاميّة على الجوانب المختلفة للهويّة الخاصّة به، وذلك لخلق هويّته الخاصّة والحصول على فكرة أفضل،

كما أنّ كل مثال على وسائل الإعلام والأسئلة المصاحبة لها يدفعنا للبحث بعمق والتفكير الناقد في طريقة خلق الإعلام للقيّم والمعاني والتوقّعات المرتبطة بهوياتنا.[1]

وهو ما دفع الباحث الى صياغة اشكالية بحثه في السؤال التالي ماهي تأثيرات وسائل الاعلام والعولمة على الهوية الوطنية؟

ثانيا :أهمية الدراسة.

ان أهمية الدراسة تنبع من مضوعها الذي يمس جانبا يعتبر من أهم الجوانب في حياة المجتمع وهي الهويَّة الثقافيَّة حيث أنها تشكل لأيِّ مجتمعٍ الإطارَ النفسي والفِكري العام الذي يعبِّر عن وجوده الاجتماعي؛ فلكلِّ أمَّة من الأمم ثوابت تمثِّل القاعدةَ الأساسيَّة لبنائها، وفي طليعة هذه الثوابت تَأتي الهويَّة باعتبارها المحور الذي تتمركَز حوله بقيَّة الثوابت، وهي نتيجة للتفاعُل بين مجموعةٍ من العوامل الفكريَّة والمعرفيَّة، التي تحكم سلوكَ أعضائه، وتوجِّه حرَكتهم، وتحدِّد لهم مساراتهم المتعدِّدة في الحياة، ووعيَهم، وطبائعهم وأمزجتهم، وتصوراتِهم عن الكون والوجود، ومعايير السُّلوك، ونظامَ القِيَم الواجبَ الاتِّباع.

ومن هنا تأتي أهميَّة الدراسة كونها من الدراسات المهمة للمجتمع بشكل عام وللأجيال الشبابية بشكل خاص, كما ان أهمية هذه الدراسة تركز على الهويَّة وتعتبر التربية من أهم الركائز من أجل تعزيز الهويَّة الثقافيَّة والاجتماعية، ومن أجل مواجهة ما تفرضه التأثيرات الخارجية مثل العولَمةُ وأجندة وسائل الاعلام– خاصَّة في شقِّها الثقافي .

ثالثا: أهداف الدراسة.

تهدف الدراسة الى تحقيق جملة من الاهداف أهمها:

1 – التعريف بالهوية الوطنية ومدى أهميتها للمجتمع.

2 – التعرف على محددات الهوية الوطنية.

3– التعرف على دور وسائل الاعلام في ترسيخ الهوية.

4 – التعرف على دور التربية في ترسيخ الهوية الوطنية.

رابعا: تساؤلات الدراسة.

تعتبر التساؤلات البحثية العمود الفقري الذي تدور حولة الدراسات البحثية وعلى الباحث الاجابة

1 – ماذا يقصد بمفهوم الهوية الوطنية وماهي ابرز محدداتها؟

2 – ما الدور الذي تلعبه وسائل الاعلام والتربية في الهوية الوطنية؟

3 – التعرّف على تكوين الهوية الوطنية من منظور علماء النفس وعلماء علم الاجتماع ؟

خامسا: منهج الدراسة.

تنتمي هذه الدراسة الى الدراسات الوصفية والتي تختص بدراسة الحقائق المتعلقة بالظواهر والاحداث القائمة من خلال جمع البيانات والمعلومات حولها والقيام بتحليلها بشكل علمي بهدف الوصول الى نتائج حول الظواهر المدروسة [2].

وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي لوصف هذه الظواهر وكذلك المنهج التاريخي لدراسة الهوية الوطنية والاجتماعية.

مفهوم الهويّة :

تعريف الهوية :– في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية "الهوية" فلسفياً عرُ ي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره ، أو هي بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله .[3]

تُعرّف الهوية بأنّها:– مزيج من الخصائص الاجتماعية والثقافية التي يتقاسمها الأفراد ويُمكن على أساسها التمييز بين مجموعة وأخرى.

وأما آراء المفكرين حول مفهوم الهوية فيلاحظ أن الأمر لا يختلفً وإن كان يتصف ، بأنه أكثر تحديدا لأنه يرتبط بالبعد الثقافي أو الاجتماعي للمصطلح .

فقد عر فها سعيد إسماعيل علي بأنها : جملة المعالم المميزة للشيء التي تجعله هو هو، بحيث لا تخطئ في تمييزه عن غيره من الأشياء ، ولكل إنسان شخصيته المميزة له ، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية و ميوله واتجاهاته وثقافته ، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب وأشار محمد عمارة أن هوية الشيء ثوابته التي لا تتجدد ولا تتغير ، وتتجلي وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانتها لنقيضها طالما بقيت الذات علي قيد الحياة ، فهي كالبصمة بالنسبة

للإنسان يتميز بها عن غيره وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس ، إنها الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي اليها, والتي عن طريقها يتعرف عليه الأخرون باعتباره منتميا لتلك الجماعة.[4]

كما تُعرّف على أنّها مجموعة الانتماءات التي ينتمي إليها الفرد وتُحدّد سلوكه، أو كيفية إدراكه لنفسه [5].

ويجدر بالذكر أنّ الهوية تتأثّر بعدّة خصائص خارجة عن سيطرة الأفراد, كالطول، والعرق، والطبقة الاجتماعية والاقتصادية، والآراء السياسية، والمواقف الأخلاقية، والمعتقدات الدينية .

وتزيد معرفة الشخص لهويته من احترامه وفهمه لذاته، ولا تُعدّ هوية الفرد ثابتةً حيث تتغيّر وتتطوّر مع الزمن، فقد كانت الهوية في الأصل قضيةً فلسفيةً ومنطقيةً غرسها العالم (فرويد) في علم النفس، وطوّرها العالم (إريكسون) الذي بيّن أنّ الهوية ليست فرديةً فحسب، بل هي قضية جماعية واجتماعية، تشمل الاختلافات والشعور بالانتماء بين الأشخاص والمجموعات [6].

تعتبر الهوية مجموعة من الخصائص والميزات التي يمتلكها شخص ما ويتمّ التعرّف عليه من خلالها، ويمكن لمفهوم الهويّة أن يبقى على تطوّر وتغيّر مدى الحياة، وبمعنى آخر فهو غير ثابت بحيث يشمل العديد من الجوانب التي لا يمكن التحكّم بها، مثل لون البشرة، وجنس الفرد، أو حتى المكان الذي وُلد ونشأ فيه، بالإضافة إلى الجوانب التي يختارها الفرد بإرادته في الحياة مثل معتقده أو كيفية تمضيته لوقت الفراغ وغير ذلك، وهناك بعض الجوانب من الهويّة الشخصيّة التي يمكن أن يظهرها الفرد لمن حوله وذلك من خلال ما يرتديه، أو ما يمارسه من العادات والمعتقدات، أو من خلال تفاعله مع من حوله من أفراد المجتمع، ويمكن أن يحافظ على بعض الجوانب لنفسه بالرغم من أنها جوانب مهمّة جداً من شخصيّته [7].

تم طرح العديد من الأسئلة التي تدور حول طبيعة الإنسان وهويّته عبر التاريخ، بحيث أفنى العديد من الفلاسفة والمفكّرين حياتهم في البحث عن مفهوم الهويّة، حيث قاموا بخلق محادثات حول أكثر الأسئلة طرحاً في المجتمع والذي بدوره أدى إلى خلق (فلسفة الهويّة الشخصيّة) التي كانت تهدف إلى معالجة مسائل الوجود وكيف وجد الإنسان عبر الزمن وتكونت هويّته، ومن

الأسئلة التي سألوها الفلاسفة في هذا المجال كيف للفرد أن يعرف أنه ما زال الشخص نفسه منذ الصغر حتى الوقت الحاضر, بحيث يعالج هنا مسألة (الاستمراريّة) أي استمرار وجودنا عبر الزمن، فاقترح كل من أفلاطون، وديكارت، والعديد من الأديان أن الاستمرارية هو الجواب الأمثل وذلك لأن الإنسان يمتلك الروح وهو الجوهر الدائم فيه[8].

معنى الهوية؟ الهوية في معناها المجرَّد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقلُّ بها الذات عن الآخر، فبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر(9).

ومن ثمَّ يمكن القول: إن الهوية هي الكيفية التي يُعَرِّف الناس بها ذواتهم أو أُمَّتهم، وتُتَّخذ اللغة والثقافة والدين أشكالاً لها؛ فهي تنأى بطبعها عن الأحادية والصفاء، وتنحو منحى تعدديًّا تكامليًّا إذا أُحسن تدبيرها، ومنحى صداميًّا إذا أُهملت وأُسيء فهمها، تستطيع أن تكون عامل توحيد وتنمية، كما يمكن أن تتحوَّل إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي، الذي تؤسِّسه عادة اللغة الموحدة[10].

ومن الخصائص الرئيسية لمفهوم الثقافة :

1 –. إنها من اكتشاف الإنسان باعتبارها مكتسبة وليست وراثية أو غريزية ، وبالاستناد إلى ذلك لا يمكن أن نجد أية ثقافة لدى الحيوان لاعتماده على الغريزة، إذن الثقافة إنسانية الملامح ولا مجال لقيام أية ثقافةٍ دون الوجود الإنساني الذي ينتمي الى هذه الثقافة ويكتسبهاٍ عن الغير من خلال تطور حياته الاجتماعية فنا وسلوكا وفكرا

2 – الثقافة تنتقل من جيل لآخر، ومن مجتمع لآخر، من خلال العادات والتقاليد والقوانين والأعراف، وعملية النقل هذه تتم من خلال التعلم، مع إضافة كل جيل لما يكتسبه معارف ومما يطرأ على حياته من قيم ومبادئ وأفكار وسلوكيات جديدة نتيجة لتغير الظروف.

3 – الثقافة قابلة للتعديل والتغير من جيل لأخر, حسب الظروف الخاصة بكل مرحلة ويمكن للأجيال الجديدة أن تضيف قيما ومفاهيم جديدة لم تكن موجودة لدى الاجيال السابقة.

تكوين الهوية :

يُعرّف تكوين الهوية وفقاً لعلماء النفس بأنّه العثور على الذات وفهمها من خلال مطابقة مواهب وقدرات الفرد مع الأدوار الاجتماعية المتاحة، ولذلك يُعدّ تعريف الفرد لذاته خياراً غايةً في الصعوبة نظراً لاتّساع العالم الاجتماعي من حوله، ولكن يُمكن ذلك باتّباع الخطوات الآتية.(11)

- اكتشاف وتطوير مهارات الفرد الشخصية:- ويُمكن ذلك من خلال عملية التجربة والخطأ، ويتطلّب تطوير هذه المهارات واكتشافها وقتاً وجهداً وصبراً لمواجهة العقبات والإحباط الذي يُمكن التعرّض له أثناء ذلك.
- معرفة الحاجة والهدف من الحياة :- شرط أن تكون هذه الأهداف متوافقةً مع المواهب والمهارات, لكي يتجنّب المرء الإحباط والشعور بالفشل.
- خلق الفرص المناسبة لتجربة المهارات والأهداف.

أنواع الهوية : وتشمل أنواع الهوية ما يأتي

أ – **الهوية الفردية:** وهي الهوية التي تُوضّح ماهية الإنسان ومن هو، وتشمل عدّة عوامل؛ كالرقم الوطني، وبصمات الأصابع، وجواز السفر، وشهادة الميلاد، والتاريخ الشخصي، والأصدقاء، والعائلة، والعلاقات. الهوية الاجتماعية: وهي غير اختيارية لأنّها تلتزم بمفهوم الأدوار الاجتماعية وطرق التصرّف المفروضة على فئة محددة؛ كالأطفال.

ب – **الهوية الجماعية:** وهي الهوية التي تتشاركها المجموعات الاجتماعية.

ج – **الهويات المتعددة:** يُجادل علماء الاجتماع أنّ الهوية أعقد ممّا سبق، وذلك لأنّها تتأثّر بعدّة عوامل ترتبط بالقضايا الاجتماعية المحيطة, كالطبقة الاجتماعية، والجنس، والعِرق، والعمر، والجنسية، وغير ذلك.

وصمة الهوية: ترتبط بأيّة صفةٍ جسديةٍ أو اجتماعية غير مرغوب فيها.

تطوير الهوية: يشمل تطوير الهوية تطوير الهوية الدينية، والهوية السياسية، والهوية المهنية، والهوية العرقية، والهوية الجندرية، ويتضمّن تطوير الهوية جانبين رئيسيين، هما كالآتي:[12]

مفهوم الذات: يُشير إلى قدرة الشخص على بناء معتقدات وآراء شخصية بثقة واستقرار، ويجدر بالذكر أنّ التطورات المعرفية في مرحلة المراهقة المُبكرة تُساهم في زيادة الوعي الذاتي، والوعي

حول الآخرين وأفكارهم وأحكامهم، بالإضافة إلى القدرة على التفكير في الاحتمالات المجردة والمتعددة.

احترام الذات: يُشير إلى أفكار الفرد ومشاعره تجاه مفهوم ذاته وهويته الشخصية وتعزيزها وحمايتها.

الهويات الاجتماعية: تُشير الهوية الاجتماعية للفرد إلى المجموعة التي ينتمي إليها الفرد، والتي تُعرّف عادةً بناءً على الخصائص البدنية، والاجتماعية، والعقلية، للأفراد, كالعِرق، والجنس، والطبقة الاجتماعية، والدين، والقدرات البدنية، والحالة الاجتماعية، والمعتقدات الدينية، وغير ذلك.[13]

نظرية الهوية الاجتماعية:

تتمثّل نظرية الهوية الاجتماعية بدراسة التفاعل بين الهويات الشخصية والاجتماعية، كما تهدف إلى تحديد الظروف التي يُفكّر بها الأفراد كأفراد أو كأعضاء في الجماعات والتنبؤ بها، وتُصاغ نظرية الهوية الاجتماعية من خلال اربع عمليات كالآتي:

1 – التصنيف الاجتماعي: وتُشير إلى تحديد الهوية الذاتية للفرد مع مجموعة اجتماعية.

2 – الإيجابية داخل المجموعة: تُشير إلى العواطف الإيجابية واحترام الذات الناتجة عن الانتماء للمجموعة.

3 – المقارنة بين المجموعات: وتُشير إلى التصورات حول وضع المجموعات المختلفة.

4 – العداء خارج المجموعة: وينتج عن مقارنات وتصورات بين المجموعات حول عدم شرعية بين المجموعات في المجتمع.

الهويّة الثقافيّة: الهويّة الثقافيّة هي عبارة عن ثقافةٍ ما، أو هويّة لمجموعةٍ ما أو شخصٍ ما نظراً لإمكانيّة تأثر هذا الشخص بهويّة المجموعة الثقافيّة، أو ثقافته التي ينتمي إليها. مصطلح الهويّة الثقافيّة يماثل أو يتقاطع مع مصطلح سياسة الهويّة؛ حيث إنّ الهويّة هي ذات الفرد، وتتضمن في معناها عدداً من القيم والمعايير، وتشكّل ثقافة الإنسان ومدى معرفته في عددٍ من المجالات

المختلفة، إضافةً إلى إلمامه ووعيه بالقضايا المحيطة به في المجتمع، حيث إنّها تمثّل التراث الفكري له.[14]

مفهوم الهوية الثقافية:- تُعرف على أنّها هويةٌ لثقافةٍ معينةٍ، أو مجتمعٍ محددٍ، أو حتّى شخصٌ ما على اعتبار أنّه سيتأثر بالهوية الثقافيّة للمجتمع أو حتّى المجموعةُ الثقافيةُ التي ينتمي إليها ويؤمن بها، وإنّ مصطلح الهوية الثقافية بحدّ ذاته متشابهٌ إلى حدٍ كبيرٍ مع مصطلح سياسيات الهوية، ومتقاطعٌ معه، وقد تطرقت الكثيرُ من الدراسات إلى هذا المفهوم، وظهر في العقود الأخيرة تعريفٌ آخر غيّر مفهوم الهوية الثقافية, كونها تتأثر بالعرق، والتاريخ، والمكان، والجنسية، والجنس، واللغة، والدين، والأكل، إضافةً للجماليات، ومن هنا يمكن أن تكون الثقافة ممتازةً في بعض الأماكن من الأرض، والعكس صحيح.[15]

كما تعرّف الهويّة الثقافيّة: على أنها مجموعة من الملامح والأشكال الثقافيّة الأساسيّة الثابتة، إضافة لهذا فهي تعني التناسق بين العقل والهويّة عن طريق نبذ التعصّب والتطرّف العرقي والطائفي في شتّى صوره وأشكاله.

وتعرّف أيضاً على أنها مركبٌ متجانسٌ من التصورات والذكريات والرموز والقيم والإبداعات والتعبيرات والتطلعات لشخصٍ ما أو مجموعةٍ ما، وهذه المجموعة تشكّل أمةً بهويتها وحضارتها التي تختلف من مكانٍ لآخر في العالم. الهويّة الثقافيّة هي المعبّر الأساسي عن الخصوصيّة التاريخيّة لمجموعةٍ ما أو أمةٍ ما، إضافةً إلى نظرة هذه المجموعة أو الأمة إلى الكون والموت والحياة، إضافةً إلى نظرتها للإنسان ومهامه وحدوده وقدراته، والمسموح له والممنوع عنه. إذاً فإنّ الهويّة الثقافيّة عبارة عن عددٍ من التراكمات الثقافيّة والمعرفيّة، سواء كانت تلك المعارف تأتي انطلاقاً من تقاليد وعادات في العائلة والمجتمع المحيط به، عاشها الفرد منذ لحظة ميلاده فكانت الأساس في تكوينه طيلة أيام حياته، وأصبحت جزءاً من طبيعته، أو انطلاقاً من الدين.[16]

نتائج الهويّة الثقافيّة: من تعريفات الهويّة الثقافيّة نستنتج أنّه يستحيل وقوعها تحت مقولة العولمة، وذلك لتعدد الثقافات حول العالم، حيث إنّها لا توجد هناك ثقافةٌ عالميةٌ واحدة، ويستحيل أن تتواجد في يومٍ من الأيّام، لكن المتواجد عددٌ من الثقافات المتعددة والمتنوّعة على مستوى الأفراد والجماعات والأمم، وتعمل كل ثقافةٍ من هذه الثقافات بصورةٍ عفويّة وتلقائيّة، أو عن

طريق تدخلٍ من أصحاب هذه الثقافة بهدف الحفاظ على مقوّماتها وكيانها الخاص، ومنها ما يميل إلى الانكماش والانغلاق، ونوعٌ آخر من الثقافات يهدف إلى التوسّع والانتشار.

إذاً فإنّ الهويّة الثقافيّة تغطّي ثلاثة مستويات فرديّة وجماعيّة ووطنيّة أو قوميّة؛ بحيث يتمّ تحديد العلاقة بين هذه المستويات بنوع الآخر المواجه لها، والعلاقة بين أطراف الهويّة الثقافية وهم الأفراد والجماعات والمجتمع أو الأمّة تأخذ شكل المدّ والجزر.

الهويّة الثقافيّة عبارة عن كيانٍ يمكن أن يتطوّر، ولا يمكن تحديدها كمُعطى نهائي؛ حيث إنّها يمكن أن تسير في اتجاه الانكماش والتقلّص أو باتجاه الانتشار، وتمتاز هذه الهويّة بغناها الناتج عن تجارب أصحابها وكمّ المعاناةِ التي مرّوا بها ونجاحاتهم وانتصاراتهم وتطلّعاتهم، إضافةً إلى احتكاكها الإيجابي أو السلبي بالهويّات الثقافيةِ الأخرى التي تتداخل معها بشكلٍ أو آخر.[17]

أهمية الوعي بالهوية الوطنية والالتزام بها:

إنّ للوعي بالهوية الوطنية والالتزام بها آثار عظيمة، تنعكس على الفرد والمجتمع والوطن بشكل عام، ولا سيّما متى قام الكل الوطني بواجباته خير قيام، فثمرات ذلك أكثر من أن تحصى، وتتمثل في قوة النسيج الاجتماعي، بحيث تعجز عن اختراقه مكائد الطامعين وأهواء الفاسدين، ونهضة في العلم والمعرفة، في شتى المجالات، وحدٌّ من الأمراض، وقوة في الاقتصاد، واستغلال جيد للعقول المبدعة، وتطوير دائم وبناء للوطن، ولحوق بركب الحضارة، بل ريادة في مصاف الأمم، وهيبة للوطن والمواطن، إذا اعتز الكل بهويته الوطنية، فأحسن فهمها، وأجاد لغة التعبير عنها.

الجوانب الرئيسيّة للهويّة:

هناك العديد من الجوانب الرئيسيّة للهويّة التي تلعب دوراً مهمّاً في فهم وتجربة العالم من حولنا، بالإضافة إلى تقبّل الفرص والتحديّات التي نواجهها، ومن الأمثلة على هذه الجوانب:

العمر. الجنس. الطبقة الاجتماعيّة. العرق. الدّين. الإعاقة. تنوّع الهويّة تنوّع الهويّة يعني اختلافها، والذي يختلف من شخص إلى آخر فلا يمكن حصر الشخص بهويّة واحدة، وهناك ثلاثة تصورات للتنوّع التي تشكّل الهويّة أو بالأحرى الهويّات وهي [18].

التنوّع الديموغرافي: يرتبط التنوّع الديموغرافي بالخصائص التي تميّز الشخص منذ ولادته وحتى بقيّة حياته، والتي تعتبر هويّته الأصلية.

التنوّع التجريبي: يرتبط التنوّع التجريبي بحياة الإنسان وما يصنع فيها من تجارب، والتي تحدّد له حياته العاطفيّة، والذي من خلاله يشارك ما يحب ويكره، والذي يؤدي إلى بناء مجتمعات عاطفيّة.

التنوّع المعرفي: يرتبط التنوّع المعرفي بإصرار الشخص للبحث عن عقول أخرى لاستكمال تفكيره أو طموحه، لذلك يمكن تسميته أيضاً بهويّة الطموح. الهويّة والتفاعل الاجتماعي إنّ معنى الهويّة مبني على مضامين تاريخيّة واجتماعيّة، والذي بدوره يقوم بمساعدة الناس للتعرّف على هويّتهم وكذلك على هويّة الآخرين من خلال التواصل مع العائلة، والأقران، والمؤسسات، والمنظمات، ووسائل الإعلام وغيرها من وسائل التواصل في حياتنا اليوميّة، أما الهويّة الاجتماعيّة الثقافيّة فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضايا السلطة وأنظمة القيم والأيدولوجيّات [19].

مفهوم الهوية الثقافية – الاجتماعية:

الهُويَّة لغة: كلمة مركَّبة من ضمير الغائب "هو" مضافًا إليه ياء النسَب، لتدلَّ على ماهية الشَّخص أو الشيء المعنِي كما هو في الواقع بخصائصه ومميِّزاته التي يُعرفُ بها...، وتُعرف الهويَّة بمعنى "التفرُّد"؛ فالهوية الثقافية تعني التفرُّد الثقافي بكلِّ ما يتضمنه معنى الثَّقافة من عاداتٍ وأنماط سلوك، وميول وقِيَم، ونَظرة إلى الكون والحياة، إنَّ هويَّة أية أمَّة هي صِفاتها التي تميِّزها عن باقي الأمَم لتعبِّر عن شخصيتها الحضاريَّة.

ويعرِّفها آخرون بأنَّها الشَّفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرِّف نفسَه في علاقته بالجماعة الاجتماعيَّة التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها يتعرَّف عليه الآخرون باعتباره منتميًا إلى تِلك الجماعة، والهويَّة كيان يصير ويتطوَّر، وليست معطًى جاهزًا ونهائيًّا، فهي تتطوَّر إمَّا في اتِّجاه الانكماش، وإمَّا في اتِّجاه الانتشار، وهي تغتني بتجارب أهلِها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلُّعاتهم، وأيضًا باحتكاكها سلبًا وإيجابًا مع الهويَّات الأخرى[20].

وقد "قدَّم عالِم النفس الاجتماعي تاجفل Tajfel ومجموعةٌ من الباحثين في عِلم النفس الاجتماعي نظريَّة الهويَّة الاجتماعية Social Identity Theory عام 1972؛ ليفسِّر كيف

تستمدُّ الذَّات معناها من خلال السِّياق الاجتماعي الذي يَحدث من العلاقات بين الجماعات، وليفسِّر كيف يحدِّد التصنيفُ الاجتماعي مكانَ الفرد في المجتمع.

ويعرِّف "تاجفل" مفهومَ الهويَّة الاجتماعية بأنَّه:- جزء من مفهوم الذَّات لدى الفرد، يُشتقُّ من معرفته بعضويَّته للجماعة أو الجماعات، مع اكتسابه المعاني القيميَّة والوجدانيَّة المتعلِّقة بهذه العضوية"[21].

ووفقًا لأمارتيا صن "يمكن أن يقدِّم الشعورُ بالهويَّة مساهمةً مهمَّة لجعل العلاقة مع الآخرين قويَّة ودافِئة، مثل الجيران أو أعضاء الجَماعة أو المواطنين أنفسهم من أبناء الوطَن أو التابعين للديانة نفسِها، ويمكن أن يثري تركيزُنا على هويَّات معيَّنة روابطَنا، ويجعلنا نفعل أشياء كثيرة بعضنا لبعض، ويمكن أن يساعِد في أن نتجاوز حياتنا المتمركِزة حول الذَّات، والأدبيَّات التي أُلِّفَت في الفترة الأخيرة عن رأس المال الاجتماعي، كَشفَت بوضوح كافٍ كيف أنَّ هويَّة مشتركة مع الآخرين في الجماعة الاجتماعيَّة نفسها يمكن أن تجعل حياةَ الجميع تسير بشكلٍ أفضل كثيرًا في هذه الجماعة، ولهذا يُنظر إلى الشُّعور بالانتماء إلى جماعة إنسانيَّة ما باعتباره أحد مصادِر الثَّروة مثل رأس المال"[22].

وهناك علاقة ارتباطيَّة قويَّة بين الانتماء والهويَّة؛ حيث "يسعى الانتماء إلى توطِيد الهويَّة، وتُعدُّ الهويَّة دليلاً على وجود الانتماء؛ فالانتماء يدعم الهويَّة ويقوِّيها؛ أي: إنَّ الهويَّة وليدة الانتماء، وحينما يدرِك الإنسانُ معنى انتمائه يستطيع أن يَعرف من هو؟ ولماذا هو موجود؟ ولأيِّ هدفٍ يسعى؟... فالبحث عن الهويَّة هو البحث في وحدةِ الانتماء، فالتماسك الاجتماعي يحقِّق الولاءَ ويقوِّي الانتماء الذي يتَّضح في مدى اعتزاز الفرد بهويَّته والفخر بها أينما كان، فالهويَّة وليدة الانتماء وهي الوجود الحقيقِي له، فتنشأ منه بقَدر ما تعمل على توكيده"[23].

ولذلك كان لفِقدان الهويَّة أحيانًا، واضطرابِها وأزمتها أحيانًا أخرى – أثرُها الواضح والمباشِر على شعور الفرد بالعزلَة والاغتراب واليأسِ والتشاؤم، وانعكاس ذلك واضح على صحَّة الفرد النفسيَّة والاجتماعيَّة؛ حيث انحلال الشخصيَّة وازدواجيَّتها وصراع القِيَم وسوء التوافق، ممَّا يهدِّد استقرارَ المجتمع وأمنه.

المعنى اللغوي للعولمة:

في اللغة العربية يوجد إشكال في شرح العولمة وهو كامن في البحث عن أصل اشتقاق الكلمة، لأنه لا وجود للفعل "عولم" في الأفعال العربية المعروفة أو المستعملة، ويمكن القول أنها مأخوذة من العالم، فقد يأخذ الدلالة التي جاء بها القرآن الكريم حيث أكد على العالمية بقوله تعالى "" يا أيها الناس ان خلقناكم من ذكر وأنثىً وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبيرَ.

والعولمة في اللسان العربي من "العالم"، ويتصل بها فعل "عولم" على صيغة "فوعل" وهي من أبنية الموازين الصرفية العربية، ونلاحظ على دلالة هذه الصيغة أنها تفيد وجود فاعل يفعل.

ومهما يكن يمكن القول أن العولمة تعي تعميم الشيء وتوسيعه ليشمل العالم كله وتعني هنا تعميم فكر أو أسلوب أو ثقافة أو أنماط سلوكية أو توسيع دائري ليشمل العالم بأسره .

مفهوم العولمة الثقافية

من الناحية الاصطلاحية يخضع مفهوم العولمة دوما وباستمرار إلى إسهامات فكرية عديدة بغية تعريفه وتحديد مضمونه للوصول الى تعريف شامل وجامع بحيث ظهر تفاوت في الآراء والمواقف نتيجة المداخل العديدة التي ينظر من خلالها لهذا المفهوم) والذي يعرفها على أنها:

من التعاريف الغربية البارزة نجد "مالكوم وتورز " والذي يعرفها على أنها " هي العمليات الاجتماعية التي يتَّرتب عليها تراجع القيود الجغرافية على التَّرتيبات الثقافية والاجتماعية ويتزايد في الوقت نفسه إدراك الفرد لذلك التراجع.

بينما يرى الايطالي "انطوني كيدنز " ان العولمة هي اساس حالة حضارية جديدة هي حالة "ما بعد الحداثة –" التي ظهرت في المجتمعات ما بعد الصناعية وذلك في أقل من عقد واحد فقط ويعرف "جان جاك روش" العولمة على أنها "مرحلة من مراحل تطور العلاقات الدولية حيث تجسد تحول البيئة وكذلك تحول طبيعة هذه البيئة التي كانت تحكمها علاقات بين الدول ثم حولتها العولمة إلى علاقات ما فوق وطنية ويرجع ذلك التحول أساسا إلى اتساع دائرة الإنتاج سواء تعلق الأمر بالشركات الكبرى أو الاقتصادية المختلفة عبر العالم، ويرجع كذلك إلى شدة التَّرابط الذي أصبح يميز العلاقات المالية والاقتصادية الدولية كما أن التطور الهائل لشبكات الإعلام والاتصال وتطور وسائل النقل ساهم بقدر كبير في تطور العلاقات الدولية إلى فوق

البعد الوطِني وإخراجها من كل مراقبة وسيطرة للدول بينما يرى "سمير امين" أن العولمة هي امتداد للتوسع الرأسمالي المرتبط بالتَّراكم، وهو توسع امبريالي استقطابي بين المراكز والأطراف، والجمع عنده بين الامبريالية والتَّراكم الرأسمالي يتمايز عن النظرة "اللينينية":"الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، كما انها نتاج مسيرة تاريخية عرفها العالم منذ قرون ثلاث؛ ظواهرها على التوالي: الاستعمار والامبريالية والعولمة[24].

مفهوم العولمة:

المقصود هنا هو جعل الشيء عالميّ الانتشار من ناحية المدى والتطبيق؛ حتى يكون مفهوماً ومناسباً ومتناولاً للجميع، وتكون العولمة في المرتبة الأولى اقتصاديةً، ثم سياسيةً، وتتبعها بعد ذلك في النواحي الاجتماعيةِ، والثقافية، كما تمتدّ العولمة من ناحيةٍ أخرى لتكون عمليةً تحكميةً تتضمن وضع مجموعةٍ من القوانين والحواجز التي تربط الدول مع بعضها البعض.

تسعى العولمة حاليّاً إلى تصدير مجموعةٍ من القيم الليبرالية الغربية؛ من أجل فرضها على جميع أمم وشعوب الأرض، حتّى يتمّ الحصول في النهاية على نموذجٍ ثابتٍ للثقافة في العالم بأجمعه بالاعتماد على الثقافة الغربية، من خلال الانتصار على التجربة الاشتراكية، وهذا ما وضّحته البيروقراطية التابعة للاتحاد السوفييتيّ، ومن هُنا يمكن تعريف (العولمة الثقافية) على أنّها محاولة مجتمعٍ يمتلك نموذجاً ثقافيّاً معيناً بتعميمه على بقية المجتمعات الأخرى، وذلك من خلال التأثير على مجموعةٍ من الأنماط السلوكية لأفراد هذه المجتمعات، والمفاهيم الحضاريّة، إضافةً إلى القيم الثقافية، بالاستعانة بوسائل ثقافيةٍ، واقتصاديةٍ، وتقنيةٍ مختلفةٍ.[25]

والعولمة يتفاوت فهم الأفراد لمضامينها المختلفة؛ فالاقتصادي يفهم العولمة بخلاف عالم السياسة، كما أن عالم الاجتماع يفهمها فهمًا قد يختلف فيه عن المهتم بالشؤون الثقافية.

- في مفهومها الاقتصادي:- عبارة عن تحوُّل نوعي عن اقتصاد يتَّصف بكل بساطة بأنه دولي، والاقتصاد المدوَّل هو اقتصاد تظل الاقتصاديات القومية المنفصلة فيه مسيطرة، على الرغم من اتساع النشاط بين الدول.
- وتعني في جانبها السياسي:- الاتجاه المتواصل نحو تعددية تُؤَدِّي فيها المنظمات الدولية دورًا رئيسًا لتشكيل بنية عابرة للقوميات، وظهور شبكة من المنظمات غير الحكومية المحلية والدولية التي تراقب عمل الحكومات وتؤثِّر فيه.

- وفي معناها الثقافي:- هي مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في العالم المعاصر، بدأت بالحداثة، وما بعد الحداثة، والعالمية، ثم العولمة، ونحن الآن في مرحلة الأمركة، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الكوكبة -نسبة إلى كوكب الأرض- ثم يتطلعون بعد ذلك إلى مرحلة الكونية.

ولعل التركيز على البعد الاقتصادي في تعريف العولمة نابع من كونها نتاجًا لتطور النظام الرأسمالي وحاجته إلى التوسع المستمر في الأسواق، وعلى الرغم من غلبة البعد الاقتصادي على أغلب تعريفات العولمة، فإن دلالة المصطلح في تطورها استقرت على أنها ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك، ويكون الانتماء فيها إلى العالم كله عبر الحدود السياسية الدولية، ويحدث فيها تحولات على مختلف الصور تؤثر في حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان.

ثقافة العولمة: فكرة العولمة تمتد جذورها الأولى من خمسة قرون بظهور فكرة الدولة القومية محل فكرة الدولة الإقطاعية.. ومع زيادة التقدم أصبحت الدولة لا تستوعب حجم السوق فظهرت الشركات متعددة الجنسيات، وحلَّت في مجال السوق محل الدولة تدريجيًّا، وتشير التقديرات إلى أن عدد الشركات المتعددة الجنسيات يناهز 65 ألف شركة[26].

ويُقصد بثقافة العولمة الإطار المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولاً من سائر الشعوب، ولا يكون في هذه الحالة في صورة ظاهرة تتمثل في إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالي فحسب؛ بل إعلانًا للتكيُّف من قبل مفكرين استراتيجيين مخططين لوضع دعامات فكر بعينه ييسر تقبُّل فكرة الانخراط في حركة الرأسمال وسيرورته كما يحلو للغرب أن يسيره.

والكلام في ثقافة العولمة متشعب، ومن الصعب حصره أو الإلمام به؛ ولكن يمكن القول: إن الإطار الفكري أو الثقافي لأفكار دعم الرأسمالية يعمل بدأب على إقناع الشعوب بموافقته للعقل؛ لأنه يحقق رغبات الأفراد بحرية مطلقة.

وإذا كان مثقفو الغرب ومفكروهم أصحاب المواقع الراسخة المؤثرة في الثقافة في العالم المعاصر ينشدون ثقافة بلا حدود تواكب الاتجاه العولمي، وتسايره كما يبدو في الرؤيا الثقافية في الغرب،

فإنهم في حقيقة الأمر يصنعون مبررات سيطرة الثقافة الغربية بلا حدود، "وهو الأمر الذي قطع شوطًا مهمًّا من الإنجاز على أرض الواقع، في ظل اتجاه متزايد نحو عالم بلا حدود ثقافية"[27].

وهذه الفكرة –فكرة ثقافة بلا حدود– تواكب العولمة التي يروِّج لها مفكرو الغرب؛ خاصة في الولايات المتحدة، تبزغ في العالم في الوقت نفسه الذي يحافظون فيه على مقومات الدولة القومية؛ لأنها أساس "الوحدة الرئيسة والمحورية في النظام السياسي العالمي المعاصر".

إن الضغوط تتوالى من أجل فرض أسس ثقافية نمطية تستغل دعاوى الديمقراطية والمشاركة، والمكاشفة، وحقوق الإنسان إلى غير ذلك من العناصر التي يمكن أن تشكِّل قواعد صالحة للتطوير والتحوير؛ لو أنها صيغت في إطار المنظومة الثقافية الوطنية؛ بينما تعمل أدوات الاتصال والمعلومات جاهدة من أجل غرس قيم وتمجيد ما يعتبر ثقافة عالمية جديرة بالاعتبار.

علاقة الهوية الثقافية بالعولمة:

يوجد بين مفهوميّ الهوية الثقافية والعولمة مجموعةٌ من العلاقات الجدلية، والمميزة، والفريدة من نوعها في طبيعة العلاقة التي تربط بين الأشياء والمفاهيم، ولكنهما بشكلٍ عام مفهومان متجاذبان، ومتقاطبان، ومتكاملان في نفس الوقت، ومن هنا يمكن اعتبار الهوية هي الطريدة، وتأخذ العولمة دور الصيّاد، وهذا ما أشار إليه الدكتور (علي وطفة)؛ على اعتبار أنّ الهوية مطارَدةٌ ومحاصَرةٌ وملاحَقةٌ من العولمة، التي تُجهز عليها وتتغذى بها؛ لذلك تعاند الهوية هنا كلّ أسباب الفناء والذوبان، مطالبةً بالأمن والأمان والاستقرار، والتشبث بالوجود والديمومة.[28]

في النهاية يمكن القول بأنّ العولمة تعني ذوبان الخصوصيّة، من خلال انتقالها من الجزء الخاصّ إلى العام، ومن الجهة الجزئية إلى الكلية، ومن المحدود إلى الشامل، وعلى العكس من ذلك تأخذ الهوية اتجاهاً كليّاً ومتقاطباً مع مفهومي العمومية والشمولية.

العولمة بين المؤيدين والمعارضين:

اللافت للنظر والفكر معًا أن قضايا العولمة وإشكالياتها طُرحت كظاهرة، والظاهرة لا فكاك منها، فهي تتلبس المهتمين بها فتشغلهم؛ خاصة إذا كانت الظاهرة تدور حول قضايا تهم كل الموجودين في المحافل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية، فضلاً عن المنتديات الوطنية في الوطن الواحد أو خارجه؛ بحيث لا تنفك عن قضاياه.

ومن هنا كان هناك مَنْ يدعو إلى العولمة والأخذ بها، وفريق آخر يحذِّر من خطرها على هويتنا وثقافتنا والبعد عنها.

أولاً: المؤيدون للعولمة:

لا شكَّ أن الذين يؤيدون فكرة العولمة، والأخذ بإيجابياتها يستندون إلى أنها أحدثت نقلة نوعية في عالم المعلومات في كل ميادين المعرفة، وقرَّبت المسافات، واختصرت الزمن، وكما يقول الدكتور "حامد عمار": لا مناص من وضع أنفسنا في توجهات العالم الذي نضطرب فيه ومعه، ومن الاشتباك مع القوى الحاشدة التي تشكل حركته؛ وليس من المستغرب – بل إنه من المطلوب– أن يتساءل المرء مع تدفق تيارات العولمة، وما بعد التصنيع، وما بعد الحداثة، هل نحن –واقعًا ووعدًا– بإزاء عالم جديد حقًّا؟ وهل هو عالم – كما يدِّعي أقطابه– مُبشِّر في أحد وجهي عملته بالعيش المشترك وبحقوق الإنسان، وبالعدل الاجتماعي؟ وهل نحن متجهون الى التلاقح الخصب بين الحضارات؛ من أجل تأسيس ثقافة "التنوع الإنساني المبدع"[29].

إن العولمة بهذا المعنى تشبه القطار، وهو قطار برغماتي قوي يحكم على من يمر به أن يركب فيه، وإلا بقي وحده منفردًا لا يحمله شيء إلى حيث يريد، وكأن ذلك الذي يتخلف عن الركب يتحدى المعايير الدولية في سباق العولمة؛ بل يتحدى ذلك الحلم الرأسمالي الذي يبدو في العقل الأميركي نبوءة إنسانية مقدسة.

ويذهب بعضهم إلى أن العولمة أدَّت إلى وحدة القيم الثقافية؛ فمن يقرأ "همنغواي" الأميركي، و"تشيكوف" الروسي، و"طاغور" الهندي، و"غونتر غراس" الألماني، و"برناردشو" الأيرلندي و"نجيب محفوظ" المصري؛ وكلهم أبدعوا في ظل مجتمعات وظروف ثقافية مختلفة يُدرك على الفور على الرغم من اختلاف اللغة والهوية والقومية أنهم اشتركوا في الدفاع عن قيم ثقافية واحدة.

والمؤيدون للعولمة يستندون إلى أنه "ليس بوسع أحد أن يغفل الدور الحاسم للحاسبات الإلكترونية كسمة مميزة لثورة المعلومات الهائلة؛ التي اصطبغ بها النظام الدولي المعاصر في السنوات القليلة الماضية؛ خاصة في مجال الدفاع وبناء القدرات العسكرية للدول، وقد تميزت هذه الثورة بأربع سمات ساعدت في اختصار المدى الزمني الذي يفصل بين كل ثورة صناعية وأخرى[30].

- الاعتماد على نتائج العقل البشري وعلى حصيلة الخبرة والمعرفة التقنية؛ فيحدد ثمن القيمة بالمعرفة والتكنولوجيا المستخدمة وليس على المواد الخام.
- مواكبة هذا التطور تستلزم استثمارًا في مجالات بعينها؛ خاصة التي تتعلق بأمور التعليم وتطوير المهارات البشرية، وتنمية كوادر وقدرات تستطيع التعامل والتكيف مع هذه الثورة.
- في خلال ذلك يتحتم استغلال الطاقات البديلة، والاستفادة من الطاقة الشمسية، واقتحام مجال الهندسة الوراثية وتكنولوجيا إنتاج الطعام الرخيص بكميات وفيرة".
- ومن المؤكد أن أبرز المظاهر السياسية للعولمة النزوع إلى الديمقراطية؛ فمما لا شكَّ فيه أن ثمة حالة من التطور الديمقراطي على المستوى العالمي أخذت تجد تطبيقات متعدِّدة لها في الدول المختلفة بما في ذلك بعض دول العالم الثالث.

وبناءً على ما سبق يرى هؤلاء المتفائلون أن العولمة أمر واقع؛ فهي في رأيهم ليست فكرة من الأفكار التي تطرح لمجرد النقاش والحوار والجدل، ثم تنتهي فورتها؛ وهذا الأمر الواقع برأيهم يحتم طريقة واقعية في التفكير؛ لأن العولمة، فيما يذهبون، آخر أبناء الحضارة الغربية، التي يجب على العالم أن يحصد مكاسبها؛ خاصة أن القطار الغربي ورأسه وقاطرته الولايات المتحدة الأميركية يصرُّ على تسيير المسيرة البشرية العالمية.

ثانيًا: المعارضون للعولمة:

يبني المعارضون للعولمة رؤاهم على ما تجلبه العولمة من تغيير البنية الأساسية لكل مكونات الحياة على المستوى السياسي والاقتصادي، والاجتماعي، والإعلامي، والثقافي؛ ومن هنا ظهر خطاب معارض للعولمة كاشف لمثالبها، وشارك فيه باحثون ومفكرون من مختلف أنحاء العالم. ولعل أكثر الكِتابات تشاؤمًا من العولمة، كتاب: (فخ العولمة) لـ"بيتر مارتن" و"هارالد شومان" فقد فنَّد العولمة في مختلف أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية والإعلامية، وحاولا التأكيد على أن العولمة في مختلف أبعادها ستزيد معدلات البطالة وانخفاض الأجور، واتساع الهوية بين الفقراء والأغنياء، وتقليص دور الدولة في مجال الخدمات كالصحة والتعليم، ونحو ذلك.

ولا يرون في العولمة إلا الهجمة الجهنمية للرأسمالية لكي تنهي التاريخ لمصلحتها، إنها هجمة لإبعاد الحضارات الأخرى بكل إنجازاتها العلمية والمادية والإنسانية لتفريغ الكون من كل

الحضارات إلا حضارة الرأسمالية الأخيرة؛ "وأول مظاهر العولمة هو عولمة السياسة بمعنى إخضاع الجميع لسياسة القوى العظمى والقطب الأوحد في العالم؛ وهو الولايات المتحدة الأميركية"[31].

ويذهب بعضهم إلى أن "العولمة ليست مجرد هيمنة الغرب على بقية العالم، إنها تؤثر في الولايات المتحدة كما تؤثر في البلدان الأخرى ، والعولمة أشد خطورة على الدول الضعيفة، فهي مرتبطة بتهميش الدول المفككة؛ لأنها تستمد هويتها من الاعتراف الدولي الذي تقبض عليه الهيمنة الأميركية، ومن دار في فلكها من الدول الأوروبية؛ فهؤلاء هم الذين يمنحون شهادات ميلاد الدول ووفاتها.

ولعل أشد ألوان العولمة خطرًا وأبعدها أثرًا –كما يراها المعارضون– هي عولمة الثقافة بمعنى فرض ثقافة أمة على سائر الأمم، أو ثقافة الأمة القوية الغالبة على الأمم الضعيفة المغلوبة، بعبارة أخرى صريحة: فرض الثقافة الأميركية على العالم كله: شرقيِّه وغربيِّه، مسلمِه ونصرانيِّه، موحِّده ووثنيّه، ملتزمِه وإباحيِّه، ووسيلته إلى هذا الغرض الأدوات والآليات الجبارة عابرة القارات والمحيطات من أجهزة الإعلام والتأثير بالكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية بالصوت والصورة والبث المباشر وشبكات المعلومات العالمية (الإنترنت) وغيرها[32].

ويرى بعضهم أن العولمة الثقافية أخطر من العولمة الاقتصادية؛ بل هي التي تمهِّد لها: تحرث لها الأرض، وتفتح لها الأبواب، وتسوق منتجاتها بين الشعوب حتى تسوغ عندها؛ بل تهواها وتركض وراءها.

ويمثل الإعلام إحدى الركائز الأساسية التي قامت عليها العولمة، ويؤكد "فوكوياما" ذلك بقوله: إن العولمة تعتمد على ثلاثة أسس؛ هي:

كيف نحافظ على الهوية ونواجه العولمة؟

ليس من الحكمة أن نتعامل مع العولمة بمنطق الرفض المطلق، أو القبول المطلق؛ فالعولمة عملية تاريخية، وبذلك يعد منطقًا متهافتًا ما يدعو إليه البعض من ضرورة محاربة العولمة بشكل عام، فهل يمكن مثلاً محاربة شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من خلال إصدار قرار

بالامتناع عن التعامل معها؟ وهل يمكن الامتناع عن التعامل مع منظمة التجارة العالمية على الرغم من سلبياتها المتعددة؟ وغير ذلك من المؤسسات العالمية التي لا يمكن الانغلاق دونها.

إن الرفض المطلق للعولمة لن يُمكِّن الدول والمجتمعات من تجنُّب مخاطرها، كما أن القبول المطلق لها لن يمكِّنها من الاستفادة التامَّة منها، "علينا نحن العرب والمسلمين أن نسأل أنفسنا سؤالاً صريحًا، وأن تكون إجابتنا عنه واضحة: هل نحن في معركة ضد التطورات المصاحبة للتحول نحو "الكوكبة أو العولمة"؟ وهل لدينا بديل نعرفه، ونريد أن نثبت عليه؟"[33].

وهناك وسائل عديدة لمواجهة خطر العولمة في المجالات المتعددة:

ففي مجال العقيدة والأخلاق: يمكن تعزيز الهوية بأقوى عناصرها، وهي العودة إلى مبادئ الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه وتعالى؛ التي تجعل المسلم في عزة معنوية عالية، وبشريعته السمحة وأخلاقه وقيمه الروحية؛ فالهزيمة الحقيقية هي الهزيمة النفسية من الداخل؛ حيث يتشرب المنهزم كل ما يأتيه من المنتصر، أما إذا عُزِّزت الهوية ولم تستسلم من الداخل؛ فإنها تستعصي ولا تقبل الذوبان، وإبراز إيجابيات الإسلام وعالميته، وعدالته، وحضارته، وثقافته، وتاريخه للمسلمين قبل غيرهم، ليستلهموا أمجادهم ويعتزوا بهويتهم، فقد استيقظت أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي على رؤية النهضة العلمية الإسلامية الباهرة، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها فرحلوا إلى مدن الأندلس؛ يريدون التثقف بعلومها، وتعلموا العربية، وتتلمذوا على علمائها، وانكبوا على ترجمة نفائسها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية، وقد أضاءت هذه الترجمات لهم مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة.

وفي المجال السياسي: يمكن التعامل مع العولمة من خلال:

أولاً: إصلاح الأوضاع الداخلية: فالأوضاع الداخلية في العديد من دول العالم الثالث –ومنها الدول العربية– لا تؤهلها للتعامل بفاعلية مع متطلبات عصر العولمة وتحدياته؛ مما يحتم ضرورة الشروع في عملية الإصلاح الداخلي. إن الإصلاح السياسي القائم على تحقيق تحول ديمقراطي حقيقي بصورة تدريجية وتراكمية، يحقق العدالة الاجتماعية، ويكافح ظواهر الفساد السياسي والإداري، يعتبر هو المدخل الحقيقي لبناء دولة المؤسسات، وتحقيق سيادة القانون، ويرشّد عملية صنع السياسات والقرارات.

ثانيًا: تطوير سياسات التكامل الإقليمي: إن تطوير سياسات التكامل الإقليمي بين دول العالم الثالث، أصبح ضرورة؛ وذلك نظرًا إلى عمق التحديات التي تطرحها العولمة على هذه الدول، ومحدودية قدرتها على التعامل معها فرادى؛ فأغلب دول العالم الثالث – وعلى رأسها الدول العربية– لا تنقصها هياكل التكامل ولا التصورات والأفكار والبرامج؛ ولكن الذي ينقصها هو إرادة التكامل، بما تتضمنه من معاني الحرص والعمل المشترك على تذليل المشكلات والعقبات التي تعيق التكامل.

وفي المجال الاقتصادي: إن لم تقم مجموعة عربية متضامنة، تنسق خططها التنموية وسياستها الاقتصادية، فإن الوطن العربي لن يستطيع مواجهة المنافسة وميول الهيمنة السائدة على الصعيد الدولي؛ "فالمستقبل الذي ينتظر الدول العربية والإسلامية سواء أكان مستقبلاً مشرقًا أم مظلمًا إنما يعتمد في المقام الأول على مدى فعالية الاستراتيجية الاقتصادية التي تتبناها هذه الدول"[34].

وللوصول إلى درجة مناسبة في مواجهة سلبيات العولمة في المجال الاقتصادي يمكن التركيز على ما يلي:

أولاً: تحقيق تنمية عربية نشطة ومتوازنة ومستقلة لا تهدف إلى التقليل من مخاطر تحديات العولمة فحسب؛ بل تعمل على رفع مستوى غالبية الناس أيضًا.

ثانيًا: إنشاء سوق عربية مشتركة: فقضية إقامة هذه السوق تستند إلى تعميق مفهوم الهوية العربية والانتماء القومي، وضرورة دعم الأمن القومي العربي، إلى جانب المصلحة الاقتصادية المشتركة؛ فهذه السوق يجب أن تقام تدريجيًّا بين الأقطار العربية، أو بين بعضها كمرحلة انتقالية؛ لأنها سوف تعمل على توحيد هذه الأقطار، وتعزز الأمن الاقتصادي العربي؛ ومن ثَمَّ تعزز الأمن القومي العربي.

وعلى المستوى الثقافي: الاتجاه إلى تحديد ثقافتنا، وإغناء هويتنا، والدفاع عن خصوصيتنا، ومقاومة الغزو الثقافي الذي يمارسه المالكون للعلم والتكنولوجيا، وهذا لا يقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لابُدَّ منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا.

نحن في حاجة إلى التحديث؛ أي إلى الانخراط في عصر العلم والتكنولوجيا كفاعلين مساهمين، ولكننا في الوقت نفسه في حاجة إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتكنولوجيا، وليست هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين بل متكاملتين.

نتائج الدراسة:

إن نجاح أي بلد من البلدان النامية في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط بمدى عمق عملية الانخراط الواعي في عصر العلم والتكنولوجيا، والوسيلة في كل ذلك هي اعتماد الإمكانيات التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها.

لست مجبرًا أن أكون أميركيًّا أو فرنسيًّا، أو غير ذلك؛ بل يجب أن أحافظ على هويتي وثقافتي وعاداتي وأخلاقي، مع الاستفادة بالطفرة العلمية الناتجة عن العولمة، ويمكن تحقيق ذلك من خلال:

- صياغة استراتيجية عربية للتعامل مع العلم والتكنولوجيا الحديثة، وإعادة النظر في المناهج الدراسية والجامعية على نحو يهدف إلى تأصيل الملامح الحضارية في الشخصية العربية لمواجهة تحولات عالم اليوم.
- التنسيق والتعاون بصورة متكاملة في وزارات التربية والتعليم العالي والثقافة والإعلام، والأوقاف والشؤون الإسلامية، والعدل؛ وذلك للمحافظة على الهوية الإسلامية من أي مؤثرات سلبية.
- ضرورة خلق إعلام ناضج يبني الإنسان العربي الواعي والقادر على أن يكون فاعلاً في حوار الثقافات، ومصونًا ضد أخطار العولمة، ومحافظًا على هوية الأمة وقيمها.
- ضمان الحرية الثقافية وتدعيمها؛ حيث إن حرية الثقافة وإنْ كانت تنبع من العدالة في توزيع الإمكانات والإبداعات الإنسانية على الأفراد، فإنها في الوقت نفسه عامل أساس في إغناء الحياة الثقافية وزيادة عطائها؛ ولكن لا يجوز فهم الحرية على أنها فتح للباب أمام كل تعبير، وقبول كل فكر؛ ولكن الحرية المقصودة هي الحرية المنضبطة بضوابط.

- التعرف على العولمة الثقافية، والكشف عن مواطن القوة والضعف فيها، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها برؤية منفتحة، غايتها البحث والدراسة العلمية، وفى الوقت نفسه نعرِّف تلك الثقافات العالمية بما لنا من تراث وتقاليد وقيم اجتماعية عريقة.

الخاتمة: في نهاية المطاف نصل للقول انه ليس سهلا اثبات امكانية التوفيق بين العولمة ونمطها الثقافي وباقي الثقافات العالمية الفرعية والمحلية، وأن الامم اليوم ليست أقرب الى الوصول الى ثقافة كونية مشتَركة يصنعها الجميع فمهما كان فانه لا وجود لثقافة نموذجية واحدة ومن المستبعد ان تعرفها البشرية يوما، بيد انه لا يمكن الانكار انه توجد ثقافات متعددة ومتنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية أو بتدخل إرادي من أهلها قصد الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة، فالثقافة الثالثة فكرة تسعى الى تمرير مشروع ثقافي دخيل وما هي الى اداة استلاب وإقناع تعتمد في ذلك على قابلية الايحاء. وانه يتوجب عقلنة الاتصال وتحصين النظام التَربوي الموازي لبناء الإنسان الحر ذي الوعي القومي والوعي العالمي دون تنازل عن مقومات الذات والهوية مع الاستناد على فكرة الحفاظ على التَراث والثقافة بما يجعلها عناصر فاعلة للمواجهة القومية وصد زحف سلبيات العولمة ما دامت تمثل تحديا حقيقيا للثقافة والهوية الثقافية المحلية.

المراجع:

1 – ناصر بن سعيد بن يوسف السيف, الهوية والثقافة, ندوة الفكر العربي, الرياض, 2013

2 – سمير محمد حسن, بحوث الاعلام , عالم الكتب, القاهرة, 1999.

3 – المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية, بالقاهرة ,ط1

4 – أمارتيا صن ,الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد 352، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو 2008.

5 – أحمد زايد: "سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات"، سلسلة عالم المعرفة، العدد 326، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل 2006.

6 – أماريتا صن, الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق, مرجع سابق.

7 – رفيق حبيب: "إحياء التقاليد العربية"، دار الشروق، القاهرة، 2003.

8 – ثائر رحيم كاظم: "العولمة والمواطنة والهويَّة، بحث في تأثير العولمة على الانتماء الوطني والمحلي في المجتمعات"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد الثامن، العدد الأول، جامعة القادسية، العراق، 2009.

9 – أحمد غنيمي مهناوي وصلاح السيد عبده: "تربية المواطنة بين خصوصيَّة الهوية وهيمنة العولمة، دراسة تحليلية ناقدة"، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة بنها، د. ت.

10– خوني وريدة: "دور المدرسة في تنمية قِيَم الانتماء الوطني"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر.

11– حسن بن فهد الهويمل: "الثقافة وتحديات العولمة"، مركز دراسة الحضارات المعاصرة، جامعة عين شمس، 2003.

12– جون جراي: "الفجر الكاذب، أوهام الرأسمالية العالمية"، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، المشروع القومي للترجمة، العدد 124، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

13 – هاني محمد يونس موسى: "دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي"، بحث غير منشور، كلية التربية، جامعة بنها، د. ت.

14– عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2000.

15 – رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت يناير, 2013.

16 – رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم, مرجع سابق

17 – إيان كلارك، العولمة والتفكك، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003.

18 – أحمد زايد: "سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات"، مرجع سابق.

19 – رفيق حبيب: "إحياء التقاليد العربية"، دار الشروق، القاهرة، 2003, مرجع سابق.

20 – فتحي عبد الفتاح، صناعة الغد بين العلم والخرافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، مرجع سابق.

21 – أحمد زايد, سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات, مرجع سابق

22 – رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، مرجع سابق

23 – أمارتيا صن ,الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق, مصدر سابق.

24 – وليد عبد الحي، انعكاسات العولمة على الوطن العربي، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ضمن سلسلة أوراق الجزيرة 21، بيروت، الطبعة الأولى، 2011.

25 – فضل الله محمد إسماعيل، العولمة السياسية انعكاساتها وكيفية التعامل معها، بيروت, بستان المعرفة، الطبعة الأولى، 1999.

26– هالة مصطفى، العولمة ودور جديد للدولة، مجلة السياسة الدولية، العدد 134، الرياض ,سنة 1998،.

27 – عبد الباسط عبد المعطي، العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1999.

28– حميد الجميلي، الشركات متعددة الجنسية ودورها في الإنتاج الدولي، مجلة أخبار النفط والصناعة ، العدد 401 فبراير، أبو ظبي، 2004.

29 – السيد أحمد فرج، العولمة والإسلام والعرب، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، 2004.

30 – السيد أحمد فرج، العولمة والإسلام والعرب, مرجع سابق.

31– أحمد سيد مصطفى، المدير وتحديات العولمة, إدارة جديدة لعالم جديد، القاهرة, الطبعة الأولى، 2001.

32 – أحمد سيد مصطفى، المدير وتحديات العولمة, مرجع سابق.

33 – حامد عمار، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة, ط1, 2006.

34 –) أحمد كمال أبو المجد، العولمة والهوية ودور الأديان، مجلة المسلم المعاصر، العدد (91)، السنة الثالثة والعشرون، القاهرة، 2007.